الباب الأول

الإسلام
وشخصية المسلم

الفصل الأول

إسْلام الوَجْه للّٰه

إن كلمة « **الإسلام** » بمعناها اللغوى والشرعى، هى الدليل الهادى لنا إلى التعريف بشخصية المسلم، ذلك أننا حينما نتحدث عن « **شخصية المسلم** » فإننا لا نتحدث عن فطرة وطبع وإنما نتحدث عن طابع مكتسب، وهذا الطابع هو الطابع الإسلامى. وما دام الأمر كذلك، فإنه لا مناص من الحديث عن الإسلام.

ولأن الشخصية الإسلامية قد تحققت أكمل ما تكون فى رسول الله ﷺ فإن المنطق يقودنا إلى اتخاذه ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ منارة نسترشد بضوئها فى خطواتها.

ويتحدد منهج التعريف بشخصية المسلم ـ إذن ـ فى أن نكتب عن:

١- الإسلام من الزوايا التى تعنينا فى الموضوع.

٢- وأن نكتب عن الرسول ﷺ، من حيث شخصيته الإسلامية.

ولقد كان الإمام البخارى رضي الله عنه متابعاً للقرآن الكريم مستدلاً به حينما فرَّق بين:

أ- الإسلام إذا لم يكن على الحقيقة.

ب- والإسلام إذا كان على الحقيقة.

فإذا لم يكن الإسلام على الحقيقة، وكان على الاستسلام أو الخوف من القتل فهو الذى يؤخذ من قول الله تعالى:

﴿ قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا ﴾(١)

أما إذا كان على الحقيقة فهو على قوله جل ذكره :

﴿ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ ﴾(٢) .

وعلى قوله سبحانه :

﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾(٣) . . اهـ .

ولسنا هنا بصدد الإسلام إذا لم يكن على الحقيقة، ذلك أنه ليس من الإسلام ـ الدين الخالص ـ فى شىء، وإنما نحن بصدد الإسلام الذى يقول عنه الراغب الأصفهانى إنه « فوق الإيمان » : وهو أن يكون مع الاعتراف اعتقاد بالقلب، ووفاء بالفعل، واستسلام لله فى جميع ما قضى وقدَّر، كما ذكر عن إبراهيم عليه السلام فى قوله:

﴿ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾(٤) .

---

(١) سورة الحجرات : ١٤ . وقريب من هذا الذى ذكره الإمام البخارى ما ذكر الراغب الأصفهانى فى المفردات من أن الإسلام فى الشرع على ضربين:
أحدهما ـ وهو الذى تذكره الآية الشريفة ـ دون الإيمان، وهو الاعتراف باللسان، وبه يحقن الدم، حصل معه الاعتقاد أو لم يحصل، وإياه قصد بقوله:
﴿ قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا ﴾ اهـ.

(٢) سورة آل عمران : ١٩ .

(٣) سورة آل عمران : ٨٥ .

(٤) سورة البقرة : ١٣١ .

وقوله تعالى:

﴿ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ ﴾[1] .

وقوله: ﴿ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا ﴾[2].

أى : اجعلنى ممن استسلم لرضاك.

ويجوز أن يكون معناه : اجعلنى سالماً عن أسر الشيطان، حيث قال:

﴿ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢) إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٨٣) ﴾[3].

وقوله : ﴿ إِن تُسْمِعُ إِلاَّ مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴾[4].

أى : منقادون للحق مذعنون له.

﴿ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا ﴾[5].

أى : الذين انقادوا من الأنبياء الذين ليسوا من أولى العزم لأولى العزم (من الرسل) الذين يهتدون بأمر الله ويأتون بالشرائع »[6] .

---

(١) سورة آل عمران : ١٩.

(٢) سورة يوسف : ١٠١.

(٣) سورة ص : ٨٢، ٨٣.

(٤) سورة النمل : ٨١.

(٥) سورة المائدة : ٤٤.

(٦) مفردات القرآن للراغب الأصفهانى.

وهذا المعنى الذى ذكره صاحب المفردات يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالمعنى اللغوى لكلمة « إسلام ».

يقول ابن الأنبارى المتوفى سنة ٣٢٨ هـ فى المعنى اللغوى للكلمة: « المسلم: معناه المخلص لله فى عبادته، من قولهم: سلم الشيء لفلان خلص له، فالإسلام معناه إخلاص الدين والعقيدة لله تعالى » (١).

وسواء نظر الإنسان إلى المعنى الشرعى للكلمة، أو إلى المعنى اللغوى فإنه يجد أن هذا اللفظ لا يشير:

١ـ إلى شخص معين كما تشير البوذية مثلاً إلى بوذا، والزرادشتية إلى زرادشت.

٢- ولا إلى شعب معين كما تشير اليهودية إلى شعب بذاته.

٣ـ ولا إلى إقليم أو بلد معين كما تشير النصرانية.

والدين الذى يدل أو ينتسب أو يشير إلى شخص معين، أو إلى شعب معين، أو إلى إقليم معين، يتحدد زمنه ـ ضرورة ـ بابتداء الشخص أو الشعب، ويتحدد بالمكان، ولكن كلمة الإسلام لا تدل على زمان ولا مكان، فهى:

٤ـ لا تشير إلى زمن يحدها.

ولا إلى مكان تتقيد به.

وتضعنا هذه الكلمة مباشرة فى جو عالمى مطلق، بل فى جو

(١) تفسير الفخر الرازى، الجزء الثانى، ص ٤٢٣، المطبعة الخيرية سنة ١٣١٨هـ.

عالمى يتخطى حدود هذا العالـم الأرضى ـ إذا أمكن ذلك ـ فلا يتقيد به ولا يتحدد بحدوده.

إنها لا تُحـدُّ بالبعثـة المحمدية: فسـيدنا نوح عليه السـلام يقول لقومه:

﴿ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ (١).

وسيدنا إبراهيم يقول عنه القرآن الكريم:

﴿ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾(٢).

وحينما كـان سيدنا إبراهيم يرفع القواعد من البـيت هو وسيدنا إسماعيل أخذا يدعوان الله سبحانه قائلين:

﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٢٧) رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١٢٨) ﴾(٣).

ولم ينس سـيدنا إبراهيم، وسـيدنا يعـقوب أن يوصـيا بنـيهـما بالإسلام، يقول تعالى:

---

(١) سورة يونس: ٧٢.

(٢) سورة آل عمران: ٦٧.

(٣) سورة البقرة: ١٢٧، ١٢٨.

﴿ وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ (١).

وحينما حضر سيدنا يعقوب الموت قال لبنيه مستفسراً، ليذهب إلى ربه مطمئناً:

﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي ﴾(٢) ؟

﴿ قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَٰهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ (٣).

وقال سيدنا موسى لقومه:

﴿ يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴾ (٤).

وسيدنا يوسف يتجه إلى الله بالحمد والشكر والدعاء:

﴿ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾(٥).

وأوحى الله إلى الحواريين أن:

﴿ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي ﴾(٦).

---

(١) سورة البقرة: ١٣٢.

(٢)، (٣) سورة البقرة: ١٣٣.

(٤) سورة يونس: ٨٤

(٥) سورة يوسف: ١٠١.

(٦) سورة المائدة: ١١١.

﴿ قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴾ (١).

ولما أحس عيسى من قومه الكفر سألهم قائلاً:

﴿ مَنْ أَنصَارِى إِلَى اللَّهِ ﴾(٢) ؟.

قال الحواريون :

﴿ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾(٣).

على أن تسمية أتباع الدين الإسلامى فى العصر الحاضر بالمسلمين كانت تسمية سابقة على وجودهم الزمنى فلقد بين الله سبحانه فى آية من القرآن بعض جوانب الرسالة الملقاة على عاتق الأمة الإسلامية، وأشار فيها إلى سيدنا إبراهيم ـ وهى آية من آيات التوجيه الإلهى الذى يجب أن يكون شعار كل مسلم ـ فقال سبحانه :

﴿ وَجَاهِدُوا فِى اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴾ (٤).

ومن البديهى أن يكون « الإسلام » بهذه المكانة من العموم والشمول فى المكان، ومن عدم التحديد بالبعثة المحمدية، فإن أساسه

---

(١) سورة المائدة : ١١١.

(٢) ، (٣) سورة آل عمران: ٥٢.

(٤) سورة الحج : ٧٨.

لا يختلف فيه اثنان، وإن مبادئه الجوهرية حينما تعرض على النفوس المخلصة لا تجد إلا القبول والإذعان.

والقرآن يعرض الإسلام فى أساسه وجوهره فى كلمات قليلة لا مناص من الإيمان بها عندما يوجد الإخلاص، يقول تعالى آمراً رسوله الكريم:

﴿ قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾(١).

ويأمره ﷺ فى خطابه مع أهل الكتاب أن يقول لهم:

﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾(٢).

ويبين لهم الله سبحانه إحدى علامات الصادقين والمرسلين مفرِّقاً بهذه المناسبة بين الكفر والإيمان فيقول:

﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُم

---

(١) سورة الأنبياء: ١٠٨.

(٢) سورة آل عمران: ٦٤.

﴿ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾[1].

ويبين الله فى عموم شامل، وفى شمول عـام فى صورة استفهام تقريرى جوهر التدين فيقول سبحانه :

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾[2] ؟.

ومن هذه الآيات السابقة نعرف أن جوهر الإسلام هو :

١ـ فى العقيدة: إسلام الوجه لله، ومعنى إسلام الوجه لله:

الإيمان بوحدانيتـه كما ترشد إليه الآيـة الأولى مما أوردناه سابقاً، ووحدانيـته سبحانـه تقـتضى ألا نعبـد إلا الله ولا نشـرك به شـيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً.

إنها تقتضى ألا نتخـذ الملائكة والنبيين أرباباً. وتقتضى أن نكون ربانيين. والربانـية فى الـعقـيـدة أن يكون الله وحـده هو المقـصـود والمرجو.

٢ ـ أمـا فى الأخلاق: فـإن جوهر الإسـلام هو : الإحسـان، والربانية كما تكون فى العقيدة فإنها تكون فى الأخلاق. والربانية فى الأخلاق أن يتخلَّق الإنسان بالأخلاق التى أُمر بها.

والإسلام ـ إذن ـ كلمة شاملة لإسـلام الوجه لله، وللإحسان..

---

(١) سورة آل عمران : ٧٩ ، ٨٠.

(٢) سورة النساء : ١٢٥.

والإحسان فى الحقيقة يؤسس على إسلام الوجه لله وينبع منه، فإسلام الوجه لله فى النهاية هو : الإسلام.

ولن يتأتى أن يعارض أحد أو يرفض إسلام الوجه لله، اللهم إلا هؤلاء الذين خلت قلوبهم من الشعور بمعنى التدين. ومن البديهى - إذن - أن الإسلام - إسلام الوجه لله - هو طريق الهداية.

﴿ فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ ﴾ (١)

ومن شرح الله صدره للإسلام - إسلام وجهه - فهو على نور من ربه:

﴿ أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ ﴾ (٢).

ومعنى إسلام الوجه لله :قد فسره الله سبحانه حينما وضح ذروته ممثلة فى شخص الرسول ﷺ إذ يقول:

﴿ قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ (١٦٣) ﴾ (٣).

ولعل أول آية نزلت من القرآن الكريم تشير إلى هذا المعنى

---

(١) سورة الأنعام : ١٢٥ .

(٢) سورة الزمر: ٢٢.

(٣) سورة الأنعام: ١٦٢، ١٦٣.

أيضاً، وكانت بذلك توجيهاً من أول الأمر إلى أن يكون العمل باسم الله، لا باسم شيء آخر أو كائن آخر:

﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾ (١).

وآيات أخرى أشارت إلى المعنى الذى نقصده ناهية عن أكل ما لم يذكر اسم الله عليه:

﴿ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ ﴾ (٢).

أما ما ذُبح على النُّصُب فإنه فسق أيضاً، لأنه لم يذكر اسم الله عليه، أو لأنه ـ بتعبير آخر ـ لم يرد به وجه الله تعالى.

والإسلام ـ إذن وفى ضوء ما سبق ـ هو الدين فى إطلاقه المطلق وفى تحديده المحدد، فمما لا شك فيه: أنه لا دين خارج إسلام الوجه لله، وأن الدين فى معناه الصحيح إنما هو إسلام الوجه لله.

وسواء عرفت الدين بهذا التعريف أو ذاك فإن معناه الصادق هو إسلام الوجه لله.

ومن هنا كان لفظ الإسلام أصدق تعبير عن الدين، وكانت القضية:

﴿ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلَامُ ﴾ (٣).

---

(١) سورة العلق: ١.

(٢) سورة الأنعام: ١٢١.

(٣) سورة آل عمران: ١٩.

قضية لا شك فيها..

وكانت القضية المترتبة على هذه :

﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِيناً فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾[1] قضية ـ هي الأخرى ـ لا شك فيها.

إن كل من يرفض إسلام الوجه لله، إنما يرفض الدين.

وبمقدار بعد الإنسان أو قربه من إسلام الوجه لله يكون قربه أو بعده من المعنى الصادق للدين.

وليس بغريب ـ والأمر كذلك ـ أن يتحدث القرآن الكريم عن طائفة من أهل الكتاب انطوت جوانحهم على الإخلاص فيعلنون إسلامهم بمجرد أن يتلى عليهم القرآن، بل يعلنون أنهم كانوا من قبله مسلمين..

يقول تعالى :

﴿ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا

(١) سورة آل عمران: ٨٥.

﴿ وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾ (١).

والنتيجة المنطقية لما سبق هى ما أعلنه القرآن الكريم بقوله تعالى:

﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴾ (٢).

ويقول سبحانه:

﴿ قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ (٣).

وإسلام الوجه لله هو التوحيد، وإذا كانت سمة النصرانية فى وضعها الراهن ـ على ما يروى البيرونى ـ هى التثليث، فإن سمة الإسلام ـ حسبما يقول بحق ـ هى التوحيد، إنها توحيد الله بالربوبية: بالخلق، بالإيجاد، بالإعطاء، بالمنع:

﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ

---

(١) سورة القصص: ٥١ ـ ٥٥.

(٢) سورة الشورى: ١٣.

(٣) سورة آل عمران: ٨٤.

﴿ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾[1].

إنه سبحانه يملك الملك فى اليسير منه والعظيم: فى الصحة، فى القوة، فى الجاه، فى الرزق، فى الغنى.

وهو يملكه فى الناحية القلبية: وقلب الإنسان بين إصبعين من أصابع الرحمن.

وهو يملكه فى الهداية: ومن يهد الله فلا مضل له.

وهو يملكه فى الآخرة: مالك يوم الدين.

إنه سبحانه: المتصرف المطلق فى الصغير والكبير: لا يعزب عن علمه ولا عن قدرته ولا عن إرادته وحكمته مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر، وهيمنته شاملة عامة مطلقة[2].

ونعود فنذكر قوله تعالى:

﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾[3].

أى : فإن لم يعترفوا معكم بأنه يجب أن تخصص العبادة لله

---

(١) سورة آل عمران : ٢٦.

(٢) انظر سورة يونس : ٦١ ، وسورة سبأ : ٣ .

(٣) سورة آل عمران: ٦٤.

وحده، وأن ينتفى الشرك به سبحانه وأن لا يتخذ المخلوقون بعضهم بعضًا أربابًا. . . فإن لم يعترفوا بهذا التوحيد وأعرضوا فأعلنوا أنكم مسلمون، أى : موحدون.

والإسلام ـ كما كانت الأديان، فى نقائها وصفائها من قبل ـ إنما هو التوحيد، وهو دعوة إلى التوحيد.

فالتوحيد ـ أو إسلام الوجه لله ـ جوهره وأساسه، وكل تعاليمه ومبادئه، إنما هى توحيد، وهى وسائل ومناهج للوصول بالإنسان إلى التوحيد:

أشهد أن لا إله إلا الله: إنها رسالة السماء الخالدة.

وأشهد أن محمداً رسول الله. . . الذى بلَّغ الرسالة، فأدى بهذا التبليغ الصادق الأمانة التى وكلت إليه وهى التوحيد.

التوحيد، هو مبدأ الإسلام وجوهره، ولكن التوحيد ليس مجرد قول وليس مجرد كلمة لا أساس لها فى القلب والشعور.

وإذا لم يؤمن الإنسان بالتوحيد إيماناً يملك عليه جميع أقطاره، فيتغلغل فى جميع أنحاء شعوره ووجدانه ويغمر قلبه ونفسه ويكيف جسمه ويوجهه الوجهة السليمة؛ فإنه لا يكون كامل الإيمان.

ومن أجل إيجاد الإنسان الموحِّد فى صورة واقعية كانت تعاليم الإسلام: فالصلاة إنما هى انفصال عن كل ما سوى الله من أجل الاتصال بالله، فهى توحيد.

ومن هنا كان بدؤها « الله أكبر» لتشعر الإنسان من المبدأ أن جميع ما فى العالم من سادة، وجميع ما فى العالم من بشر تتعلق بهم الآمال، أو يناط بهم الرجاء، فإن الله أكبر منهم وأجلّ وأعظم، فيجب أن تتعلق الآمال به وحده وأن يقتصر الرجاء عليه سبحانه.

ثم تتوالى جميع الأوضاع فى الصلاة : من قراءة وركوع، وسجود، وتشهد، لتعلن ـ بكل حركة، وبكل وضع ـ الانفصال عما سوى الله من أجل الاتجاه إلى الله وحده، ومن أجل إسلام الوجه إليه سبحانه.

والصوم ـ إنما هو تنزه عن المادة، إنه تنزه عن النقص البشرى الذى يتمثل فى شهوات المعدة، لتخلص الروح فترة إلى التأمل فى كمال الله، إنه محاولة للتخلق بأخلاق الله، لأنه سبحانه الكمال المطلق الذى لا يحتاج إلى شىء، والذى لا بد لمن يأمل فى شىء من الكمال من أن يتحلى بما أراده ـ سبحانه ـ منه، إنه تنزه عن النقص فى سبيل التوحيد.

والزكاة إنما هى بذل المادة فى سبيل الله، إنها بذل المادة التى يجرى وراءها البشر، ويكادون يعبدونها، بذلها بعد امتلاكها، بذلها وقد كان فيها ـ لو أراد ـ الوسيلة للملاذ والشهوات، إنها تجرد عن المادة توحيداً لله سبحانه.

أما الحج ـ والله نسأل أن يكتبه لنا كل عام ـ : فإنه تجريد كله.. إنه تجرد عن الماضى، فهو فى بدايته : التوبة عن الذنوب والآثام،

أى : عن الفترات التى غفل الإنسان فيها عن ذكر الله، فأشرك معه غيره، واتخذ إلهه هواه فنسى الله فوقع فى المعصية والإثم.

وهو تجرد حتى عن ملابس الماضى، وهو تلبية من أول لحظاته: تلبية هى استجابة لله وحده أو هى توحيد خالص، إنها استجابة كاملة للأمر بنفى الشرك : (**لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك**).

إن هذا النداء الذى يتعالى وله عبير طيب، وله سناء متألق، فيصعد إلى السماء، فتفتح له أبوابها.. إن هذا النداء إنما هو الانطواء الكامل تحت راية التوحيد..

وتتوالى أعمال الحج كلها واضحة سافرة أو رمزية مستعلية: معلنة التوحيد، منادية به، طائفة وراءه، ساعية من أجله، واقفة تستشرفه، راجية من الله سبحانه وتعالى أن يقبل أصحابها فى زمرة الموحدين، يقول الله تعالى:

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾(١).

هذه بعض معالم التوحيد فى العقيدة.

ومعالم التوحيد فى « الأخلاق » :أن لايصدر عن الإنسان ولا يرد

---

(١) سورة الأنبياء : ٢٥.

فى سلوكه الشخصى أو فى سلوكه الاجتماعى أمر إلا عن توجيه إلهى.

ومعالم التوحيد فى «النية» أن يكون الإنسان فى كل ما يأتى وما يدع، قاصداً وجه الله تعالى، هو أن تكون حياته كلها لله، وليست الحياة وحدها، إنما الممات أيضًا.

والتوحيد على العموم هو أن يهب الإنسان نفسه لله فى قيامه وجلوسه، فى نومه ويقظته، فى حديثه وصمته، فى غضبه ورضاه، فى صداقته وعداوته، فى بيعه وشرائه، فى عمله وراحته، فى أفكاره وآرائه، فى توجيهه وإشاراته، فى نصائحه وتحذيراته، فى كل نفس يتنفسه، أو طرفة عين يطرفها.

ونعود فنذكر ـ كقانون جامع ـ أن توحيد الإنسان هو أن تكون صلاته ونسكه ومحياه ومماته لله رب العالمين لا شريك له.

ويقترب الإنسان من المثل الأعلى الإسلامى بمقدار قربه من هذه المعانى: عقيدة، وأخلاقاً، ونية.

وقوله تعالى:

﴿ **أَلا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ** ﴾[1] إنما يشير إلى خلوصه من كل شائبة شرك، سواء أكان الشرك فى العقيدة أم كان فى الأخلاق والنية.

والله سبحانه أغنى الشركاء، فمن عمل عملاً لله ولغيره، فإن

(١) سورة الزمر: ٣.

الله سبحانه برىء من عمله، وكذلك من اعتقد شريكاً لله فالله برىء منه.

« إنما الأعمال بالنِّيَّات، وإنما لكل امرئ ما نَوى، فمن كانت هجْرتُه إلى الله ورسوله ، فهجْرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هِجْرتُه لدنيا يُصيبها أو امرأة يَنكحُها فهجرته إلى ما هاجر إليه ».

وذلك كله يسلمنا إلى أن المعنى الحقيقى للإسلام هو كما ذكرنا:

إسلام الوجه لله.

ويعبر عن هذا فى وضوح جميل الحديث الشريف الذى رواه الصحابى الجليل عمرو بن عبسة، قال:

« قال رجل : يا رسول الله : ما الإسلام ؟..

قال ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ :

« أن يسلم لله قلبُك، وأن يسلم المسلمون من لسانك ويدك » (١).

وما من شك فى أن سلامة المسلمين من لسان الإنسان ويده إنما ترجع إلى إسلام قلبه لله ، وأنها على حد قول رسول الله ﷺ :

« لو خَشَعَ قلبُه لخشَعتْ جوارحُه ».

وعلى حد قوله ﷺ :

« ألا إن فى الجسد مُضْغَةً إذا صلحتْ صَلحَ الجسد كله ، وإذا فسدتْ فَسَدَ الجسد كله ، ألا وهى القلب ».

---

(١) رواه الإمام أحمد ، ورجاله رجال الصحيح .

وقد يتساءل إنسان: وما كيفية إسلام الوجه لله ؟

ما هى الوسائل لذلك ؟

ما الطريق ؟

أما الوسائل فإنها المبادئ الإلهية التى قررها الله سبحانه على لسان رسوله: قرآناً كانت، أو سنة قولية أو عملية.

ولا مناص لكل من يريد أن يسلم وجهه لله سبحانه من أن يرجع فى ذلك إلى القرآن، ومن أن يرجع فى ذلك إلى السنة:

أى أنه لا مناص لكل من يريد الهداية أو التدين أو الحق من أن يلجأ إلى القرآن والسنة.

وذلك أن القرآن الكريم إنما هو النص الوحيد فى العالم الآن الذى احتفظ ـ بحفظ الله له ـ بالتعبير الإلهى الذى يشرح الدين ويوضحه دون تحريف بزيادة أو نقص.

والقرآن لم يحتفظ بما أوحاه الله بالمعنى فحسب، وإنما احتفظ بالتعبير نفسه، وهذه منزلة لا تدانيها منزلة، ودرجة فى الدقة والصدق لا يضارعها غيرها حتى ولا من قرب.

وإنها لمفخرة للمسلمين كبرى أن يكون الدين الذى يدينون به إنما يرجعون فيه إلى النص الإلهى نفسه فى دقته، وفى نضارته، وفى بركته، وفى سنائه ولألائه.

وإنها لمفخرة للغة العربية أن تحتفظ بالنص الإلهى الوحيد فى

العالـم، أن تحتفظ بـالكتاب الذى أُحكمت آياته ثم فُـصِّلت من لدن حكيم خبير(١).

أمـا **النتيجـة الأولى** التى نريد أن نصل إليهـا فهى أن الدين، وإسلام الوجـه لله، والتوحـيد، والإسلام: كلهـا بمعنى واحد يفـسر بعضهـا بعضاً ويشرح بعـضها بعضـاً، وكلها مطلقة عامـة لا يحدها زمان ولا مكان، وكلمة الإسـلام خير ما يعبر عنهـا فى جرسها وفى كمالها:

﴿ **الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا** ﴾(٢).

والنتيجة الثانية: هى أن جوهر الشخصية الإسلامية، أو شخصية المسلم، أنها هى إسلام الوجه لله أو التوحيد أو التدين الصادق أو.. الإسلام.

وبمقدار قرب المسلم من الإسلام يكون كمال شخصيته.

وما من شك فى أن أكـمل شخصية إسـلامية إنما هى شخـصية الرسول ﷺ الذى وصفـه الله بأنه أول المسلمين، ولم يصف أحدًا غيره بذلك.

وعنها نبدأ الآن الحديث ـ إن شـاء الله ـ لنتبين أيضاً ـ من طريق الرسول ﷺ ـ أن جوهر الشخصية الإسلامية إنما هو:

إسلام الوجه.

---

(١) انظر سورة هود : ١ .

(٢) سورة المائدة : ٣.